

إدريس الخضراوي \*

## السرد موضوعاً للدراسات الثقافية

نحو فهمٍ لعلاقة الرواية بجذلية السيطرة والمقاومة الثقافية<sup>١</sup>

إن سؤال العلاقة بين النقد والأدب أعمق من أن يُختزل في حدود الاشتغال على دراسة العناصر التي تجعل من عمل ما عملاً أدبياً أو على المعاني المتعددة واللانهائية، فهو يمتد بالقدر نفسه إلى الفضاء الذي فيه يتشكل الأدب وكذلك الوعي به، أي إلى الاهتمام بالمحتّم في تكوّن الثقافة وأنساقها، وهو ما يقتضي وضع الأدب في سياق أوسع. ترمي هذه الدراسة إلى إظهار الإضافة التي تقدمها الدراسات الثقافية في هذا النمط من الاشتغال المنفتح الذي يستند إلى فرضيات جديدة تعتبر الأدب والرواية بشكل خاص ممارسة ثقافية يتطلب بناء المعرفة بها قدرة على تكليم ذلك المجهول الذي يثوي خلف الدلالة المباشرة. وهذا ما يقتضي، إلى جانب الاهتمام بخصوصية النص كخطاب لغوي جمالي، وعياً بالسياق الثقافي الواسع الذي يتحقق فيه، وذلك من أجل إنارة النص وتبسيط ما يكفي من الضوء عليه حتى يكشف عن الأنساق المضمرّة فيه.

هذا التحليل الثقافي يتم التفكير في أدواته ومفهومه للخطاب الأدبي انطلاقاً من الأعمال النقدية لإدوارد سعيد الذي يتعبّن بوصفه من أبرز النقاد الثقافيين الذين أثروا الدراسات الثقافية. لذلك، فإن منهجية القراءة الطباقية التي استند إليها في تفكيك نظم الإمبريالية والمقاومة الوطنية المعارضة للهيمنة، وانعكاس أنساق الهيمنة والمقاومة في الثقافة، هذه المنهجية لا تجترح كوى جديدة في تلقّي الأدب فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى الإلماع إلى الرهانات الإنسانية لهذا النمط من التحليل. إنه رهان البحث عن فضاء ثالث يتعبّن وفقاً للتعددية والحوارية والثراء الإنساني.

\* أستاذ التعليم العالي، جامعة القاضي عياض - أسفي.

١ لا شك في أن مفهوم السرد يتسم بالعمومية بحيث يمكن أن يحتمله الكثير من الممارسات؛ فالسرد يمكن أن تحتمله اللغة المنطوقة، شفوية أكانت أم مكتوبة، وأن تحتمله الصورة، ثابتة أكانت أم متحركة، والإيماء. وهو يحضر في الأسطورة وفي الحكاية الخرافية وفي الحكاية على لسان الحيوانات وفي الخرافة وفي الأقصوصة والملحمة والتاريخ والمأساة والدراما والملهاة واللوحه، وفي النقش على الزجاج، وفي السينما والمحادثة (رولان بارت). لكن هذا المفهوم يرد في هذا البحث في إطار التصور الحديث للسرد الذي برز منذ الستينيات انطلاقاً من الأبحاث التي تركزت حول الاشتغال على التقصي في المكونات الداخلية للرواية، وذلك في إطار الشعرية (Poétique) التي تستوعب السرديات (Narratologie) والسميائيات السردية (Sémiotique narrative). وقد تطور هذا المفهوم خلال أواخر السبعينيات من خلال التعرّف إلى أعمال المنظر الروسي ميخائيل باختين، وذلك في إطار ما يسمّى النقد الحوارية (La Critique dialogique)، وكذلك أبحاث إدوارد سعيد في النقد الثقافي المقارن، خصوصاً تلك التي استند فيها إلى مفهوم القراءة الطباقية الذي يجمع بين تفكيك آليات السيطرة في الخطاب الثقافي للإمبريالية وقراءة المقاومة الوطنية للإمبريالية وانعكاسها في الثقافة.